أحياناً يكون الضحكُ هو الدواءَ الأوحد

كريستي كارنِجي فوجيو، دكتوراه في القانون، ماجستير في الآداب

النقصُ الحاد في المؤن الطبية بسوريا أمرٌ وثّقَتْه جيداً وسائلُ الإعلام والجماعاتُ الإنسانية وجماعاتُ حقوق الإنسان. يَتم إعاقة عمل البعثاتِ الإنسانية، واستهداف شاحنات المؤنِ بالهجوم، ومَن يحاول نقلَ المؤنِ الطبيةِ الحرجة إلى سوريا اليوم يخاطر بحياته. ثَم نقصٌ في كلِ شيء تقريباً يحتاج إليه الأطباءُ ومرضاهم من مؤن – كلِ شيء إلا الضحك. إذْ لم أرَ روحَ الصمود التي يتمتع بها الشعب السوري تتجلى في مكان أكثر مما رأيتُها في ثلة الأطباء والمحامين السوريين الذين قضيتُ معهم مؤخراً أمسيةً في الشرق الأوسط. وكم كانت مدهشةً قدرتُهم على تلمُسِ المرحِ في الحياة، حتى في خضم هذا الصراع الرهيب!

قضينا أربعَ ساعاتٍ معاً، مسترخينَ في بهوِ أحدِ الفنادق، يقص بعضُنا على بعض قصةَ حياتِه، ونرى الصورَ التذكارية، ونتكلم في السياسة، ونناقش بطبيعة الحال الوضعَ بسوريا. كانت تلك أولَ مرة أجلس فيها مع هذه المجموعةِ الخاصة، لكنّي كنت ألاحظ قبلها التبسمَ الذي يكاد لا يفارق مُحياهم وأدهشتني روحُ الصُحبةِ المرحةِ في ما بينهم.

هم فريقٌ من الأطباء يعملون في مشفىً داخل سوريا، يعكفون على معالجة المرضى وقذائفُ المَدافع والقنابلُ تنفجر من حولهم في كلِ مكان. وقد تعلموا كيف يميزون بين أنواع الذخائر المنهمرة من صوتها فقط. قالوا لي أن الليل عندهم أسوأُ الأوقات. فالانفجاراتُ غيرُ المرئيةِ في الظلام الدامس أمرٌ مخيف. ثُم انتقلَ الحديث إلى سردِ قصةِ رجلٍ فَقدَ في انفجارٍ واحد زوجتَه وابنتَه وطفلَه الرضيعَ كلَهم معاً. وبالرغم من أن هؤلاء الأطباء يَشهدون في كل يوم أهوالَ الحرب وما تنطوي عليه من عذابٍ وعنف جنسي، فإنّ قصةَ هذا الرجل كانت مختلفة. وقد أدمَعتْ أعينَهم جميعاً – حتى الرجالَ منهم. قالت الدكتورة "س" إن رؤيةَ حزنِ هذا الرجلِ على طفله الرضيع الذي أمكن في البداية إنقاذُه من الانفجار ليفارقَ الحياةَ بعد ذلك كانت أمراً يقطِّع نياطَ القلب. لم أتمالك نفسي وأنا أسمع القصة فانهمرت دموعي على خدَّيْ ؛ ولم أستطع أن أتصورَ كيف كان حالُ هذا الطبيب وهو يرى ويسمع ويحس حزنَ ذلك الرجل المفجوع.

أطرَقَ الجميعُ هنيهة: أنا لاستعادةِ توازني، وهُمْ لأنهم فوجئوا بي أبكي. فقد شبّوا على دعاية الحكومة تصف الأمريكيين بالبرود والآلية، وقد عزز هذا الاعتقادَ لدى كثيرين تقاعسُ الإدارة الأمريكية عن فعل شيءٍ يُذكَر لوقف المعاناة السورية. قال لي الدكتور "ك" نحن عائلةٌ واحدة – وهكذا نحن.

سألتُهم عن زميلهم الدكتور "م" الذي قابلت في الشهر الماضي ولم يكن بيننا تلك الليلة. فضحكوا وهم يخبروني عن محاولاته المتعددة لعبور الحدود بلا جواز سفر. أوأضحكُ معهم مِن قصص العذاب تلك عند نقاط التفتيش والجدران ومِن الرِشا وكلابِ الحراسة؟ وكيف لي أن أضحك وأنا قلقةٌ بحق على الدكتور "م". لكن مواصلتَهم الضحك وسردَهم تفاصيلَ نجاتِه مراراً من الموت المحقق غلبتْني في النهاية. فضحكت. عندما يكون الموتُ قريباً من المرء إلى هذا الحد كلَ يوم، فليس أمامه إلا أن يضحكَ أو يبكي، وقد اكتشف هؤلاء السوريون أن إيجادَ لحظاتٍ للضحك هو أفضلُ دواء – ولعله الدواء الأوحد – لإبقاء معنوياتِهم مرتفعة وشعورِهم طيباً. أتطلع إلى المزيد والمزيد من ليالي الضحك مع أصدقائي السوريين وعائلتي السورية هذه، إن شاء الله.